المحاضرة الثامنة

زهير بن أبي سُلمى ومعلقته

زهير بن أبي سلمى (*)

؟ - ٦٠٩ م

هو زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح المُزْني بن مضر. مزني النسب غطفاني النشأة والمربى. ولد في بلاد مُزينة بنواحي المدينة وكان يقيم في الحاجر بجوار نجد. توفي أبوه قبل أن يولد، ومن ثم كفله خاله الشاعر بشامة بن الغدير، وقد تأثر به زهير كثيراً. ولما مات بشامة أوصى لزهير بقسم من ماله. ويروى أنه قال له: إني أعطيتك ما هو أفضل من المال، فقال زهير: ما هو؟ فقال له: شعري. والحقيقة أن زهيراً ورث عن خاله، إلى جانب ما ذكرنا، خلقه الكريم. تزوج زهير من امرأتين: أم أوفى وهي التي يذكرها في مطلع المعلقة، وقد طلقها بعد أن ولدت منه أولاداً ماتوا جميعاً. وكبشة بنت عمار الغطفانية، وقد ولدت له كعباً وبُجَيْراً وسالماً. ومات سالم في حياته، ورثاه ببعض شعره.

عاش زهير في سَعَةٍ من المال. وكان وقوراً نبيلاً، ولعل ذلك جعل شعره خالياً من الفحش. ويبدو أنه كان يؤمن باليوم الآخر وما فيه من عقاب وثواب. اتصل الشعر في بيئته اتصالاً لم يعرفه شاعر جاهلي آخر، حتى نستطيع أن نقول إنه عاش للشعر. كان أبوه شاعراً وكان خاله شاعراً، وأختاه سلمى والخنساء كانتا شاعرتين، وابناه كعب وبجير كانا شاعرين أيضاً.

عمَّر الشاعر طويلاً، حتى قارب المائة عام. وكان خلال حياته شاعراً جيداً. تأثر بشعر أوس بن حجر زوج أمه، علاوة على تأثره ببشامة كما أسلفنا.

وللحقيقة أن الشعر الجاهلي لم يعرف شاعراً عُني بتنقيحه وغربلته كما فعل زهير. ولذلك سميت قصائده بالحَوْليّات، وسواء سمى زهير هذه القصائد أو سماها

الرواة، فإن هذه التسمية تدل على الجهد العظيم، والتجويد الكبير، والعناية الفائقة التي كان يبذلها زهير في شعره.

مات الشاعر الحكيم في السنة ٦٠٩ م إلا أنه ما زال ملء الأسماع بحكمه وشعره الخلقي المثالي.

* * *

وقد نظم معلقته هذه، وهي الثالثة في المعلقات، على أثر الحرب التي دارت رحاها بين عبس وفزارة، بسبب سباق داحس فرس قيس بن زهير سيد بني عبس، والغبراء حمل بن بدر سيد بني فزارة من غطفان. وذلك أن زهيراً وحملاً تراهنا على مئة بعير، يدفعها من يخسر السباق إلى من يربحه. ولما كان اليوم المعين بعث حمل بن بدر من يكمن لداحس ويرده عن غايته إذا جاء سابقاً. ثم أرسل الفرسان فبرز داحس عن الغبراء حتى شارف الغاية ودنا من الكمين، فوثبوا عليه وردوه فسبقت الغبراء.

وبعث حمل ابنه مالكاً إلى قيس يطلب منه حق السبق فأبى قيس دفعه وقتل مالكاً، فكان ذلك باعثاً على الحرب. وقد طالت هذه الحرب وكثر فيها القتلى حتى أصلح بين المتحاربين هرم بن سنان والحرث بن عوف، ودفعا الديات من مالها، وقيل إنها بلغت ثلاثة آلاف بعير. فنظم زهير معلقته يمدح بها المصلحين لحقنهما الدماء، ويحذر الفريقين من شر الخيانة وإضمار الحرب، وقد توسع في وصف الحرب ونتائجها المشؤومة ثم ختم المعلقة بحكمه التي استحق بها لقب الشاعر الحكيم.

معلقة زهير بن أبي سُلمى

بدأ زهير معلقته بالمقدمة الطللية وفيها يقول:

أمن أمّ أوفى دمنةٌ لم تكلّم ... بحومانة الدّرّاج فالمتثلّم

ودارٌ لها بالرّقمتين كأنّها ... مراجيعُ وشمٍ في نواشر معصم

بها العينُ والآرامُ يمشين خلفةً ... وأطلاؤها ينهضن من كلّ مجثم

وقفتُ بها من بعد عشرين حجّةً ... فلأيًا عرفتُ الدّار بعد توهّم

فلما عرفتُ الدّار قلتُ لربعها ... ألا انعم صباحًا أيها الرّبع واسلم

هذه المقدمة الطللية التي ابتدأ زهير معلقته بها، والمقدمة الطللية بصورة عامة يصور فيها الشعراء المكان الذي كانت تسكن فيه المحبوبة أو الزوجة، والذي أصبح مكانًا خربًا بعد رحيل تلك المرأة عنه بسبب الرياح والأمطار، ولهذا لم يتعرف زهير على هذا المكان إلا بعد مشقة، حيث وجد فيه بقر الوحش والظباء (الغزلان) وصغارها.

مقطع المدح:

وفيه يمدح زهير الحارث بن عوف، وهرم بن سنان، مدحهما لإتمامهما الصلح بين عبس وذبيان وتحملهما أعباء ديات القتلى.

يقول زهير في مقطع المدح:

يميناً لنعم السيّدان وجدتما على كلّ حالٍ من سحيلٍ ومُبرم
تداركتما عبساً وذبيانَ بعدما تفانوا ودقّوا بينهم عطرَ منشم
وقد قُلتما: إن ندرك السِّلم واسعاً بمالٍ ومعروفٍ من القول نسلم
فأصبحتما منها على خير موطنٍ بعيدَين فيها من عُقوقٍ ومأثَم
عظيمين في عُليا مَعدٍّ هُديتُما ومن يستبح كنزاً من المجد يعظم

مقطع وصف الحرب:

وما الحربُ إلا ما علمتم وذقتمُ ... وما هو عنها بالحديث المرجّم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً ... وتضرَ إذا ضرّيتموها فتضرم
فتنتج لكم غلمان أشأمَ كلّهم ... كأحمر عادٍ ثمّ ترضع فتفطم

إذ يصور زهير الحرب في صور سلبية مخيفة، فهي تارة أسود ضارية، وتارة ثانية نار مشتعلة.

مقطع الحكمة:

سئمتُ تكاليف الحياة ومن يعش ... ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم
رأيتُ المنايا خبط عشواء من تُصب ... تُمِتهُ ومن تخطئ يُعمَّر فيهرم
ومن يكُ ذا فضلٍ فيبخل بفضله ... على قومه يُستغنَ عنه ويُذمم
ومهما تكن عند امرئٍ من خليقةٍ ... وإن خالها تخفى على الناس تُعلم

في البيت الأول ((سئمتُ تكاليف ---)) يقول زهير: مللت مشاق الحياة وشدائدها، ومن عاش ثمانين سنة مل الكبر لا محالة.
وفي البيت الثاني ((رأيتُ المنايا ---)) يقول زهير: أنا أرى المنايا تصيب الناس على غير ترتيب / الصغير والكبير، فهي كالناقة العمياء تطأ على غير بصيرة، ثم يقول: من أصابته المنايا أهلكته ومن أخطأته أبقته فبلغ الهرم.
وفي البيت الثالث: ((ومن يكُ ذا فضلٍ ---)) يقول: إن من له فضل ومال فبخل به استغنى عنه وذم. وفي البيت الرابع ((ومهما تكن عند امرئٍ ---)) يقول: ومهما كان للإنسان من خلق فظن أنه يخفى على الناس علم ولم يخفَ.